فمرض أياماً، ثم أسكت، [فبلغني أنه][1]، سأل الله أن يريحه من الدنيا، فاستجاب دعاءه، [وسمع نداءه][1] رحمه الله.

وفيها توفي الشَّريف البهاء الكاتب، وشمس الدين القواس.

السنة السادسة والعشرون وست مئة

في صفر ولَّى الملكُ النَّاصر محيي الدِّين يحيى بن الزكي قضاء القضاة بدمشق، وقرأ عهده بهاء الدين بن أبي اليُسْر [بالكلاسة][1].

وفيها أعطى الكامل بيت القدس للإنبرور، ووصل [الإنبرور][1] إلى يافا، وخرج الكامل من مِصْر، فنزل تل العجول، وكان النَّاصر داود قد بعث الفخر بن بصاقة إلى الأشرف يستدعيه إلى دمشق، فوصل إلى النَّيْرب، ونزل ببُسْتانه، وكان عز الدين أيبك قد أشار على النَّاصر بمداراة الكامل، وقال [له: لا][1] تبعثْ إلى الأشرف وداوِ الأخطر. فخالفه، وقال الأشرف للنَّاصر: أنا أمضي إلى الكامل، وأصلح حالك معه. ومضى إليه، فوجده قد دفع القدس إلى الإنبرور، فشقَّ عليه، ولام الكامل، فقال: ما أحوجني إلى هذا إلا المعظم. أشار إلى أَنَّ المعظم أعطى الإنبرور من الأردن إلى البحر، وأعطاه الكامل الضِّياع التي من باب القُدْس إلى يافا وغيرها، ولما اجتمع الأشرف والكامل اتَّفقا على حصار دمشق، ووصلت الأخبار بتسليم القُدْس إلى الفرنج، فقامت القيامة في بلاد [الإسلام، واشتدت العظائم بحيث إنه][1] أقيمت المآتم.

قال المصنف: وأشار الملك النَّاصر داود بأن أجلس بجامع دمشق، وأذكر ما جرى [على البيت المقدس، فما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة والحمية للإسلام موافقته][1]، فجلستُ [بجامع دمشق][1] وحضر النَّاصر داود على باب مشهد عليٍّ، وكان يوماً مشهوداً، [لم يتخلف من أهل دمشق أحد][1] ومن جُمْلة الكلام: انقطعتْ عن بيت المقدس وفود الزَّائرين، يا وَحْشَة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

من ركعة، كم جَرَتْ لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وَفَتْ، ولو تقطَّعت قلوبُهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المسلمين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزَّفرات، لمثلها تعظم الحسرات، [وذكر كلاماً طويلاً، وأكثر الشعراء في حديث القدس،][1] وكان بعض أصدقائي نظم أبياتاً، فاقتضى الحال إنشادها، وهي هذه الأبيات[2]: [من الطويل]

أَعَيْنَيَّ لا تَرْقَي من العَبَرَاتِ ... صِلِي بالبُكا الآصالَ بالبُكُراتِ
وأَذْرِي دموعاً كالشَّرار يطيره ... لهيبُ الحشا من عاصفِ الزَّفراتِ
لعلَّ سيولَ الدَّمْع يُطفىء فَيْضُها ... تَوَقُّدَ ما في القلب من جمراتِ
ويا فَمُ بُحْ بالشَّجْو منك لعلَّه ... يروِّحُ ما ألقى من الكُرُباتِ
على المسجدِ الأقصى الذي جَلَّ قَدْرُه ... على موطنِ الإخْباتِ والصَّلواتِ
على منزل الأملاكِ والوحي والهُدَى ... على مَشْهَدِ الأبدال والبَدَلاتِ
على سُلَّمِ المعراجِ والصَّخْرة التي ... أنافَتْ بما في الأرضِ من صَخَراتِ
على عَرْشِ ملك الله في الأرض قبل أَنْ ... يرى العَرْشَ والكرسيَّ ذا الدَّرجاتِ
على القِبْلة الأُولى التي اتَّجهتْ لها ... صلاةُ البرايا في اختلافِ جهاتِ
على خيرِ معمورٍ لأكرمِ عامرٍ ... وأشرفِ مبنيٍّ لخيرِ بُناةِ
ومعمار داود ذو الأَيْد وابنه ... سليمان ربّ المُلْك والزّلفاتِ
عفا المسجدُ الأقصى المباركُ حَوْله الرَّ ... فيعُ العمادِ العالي الشُّرفاتِ
عفا بعدما قد كان للخير مَوْسماً ... وللبِرِّ والإحسانِ والقُرُباتِ
يوافي إليه كلُّ أشعثَ قانتٍ ... لمولاه بَرٌّ دائمُ السَّجداتِ
خلا من صلاةٍ لا يَمَلُّ مقيمُها ... تُوَشَّحُ بالآياتِ والسُّوَرَاتِ
خلا من جسومٍ بالعبادة نُحَّلٍ ... ومن أَوْجُهٍ بالخوفِ مُمْتَقِعاتِ
خلا من عيونٍ شُرَّهٍ ببكائها ... وأفئدةٍ من رَبِّها وَجِلاتِ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) وقد أورد معظم أبيات القصيدة كذلك أبو شامة في «كتاب الروضتين»: ٤/ ٣٣٥ـ٣٣٦ بتحقيقي.

خلا من أنين النَّادمين على الذي ... بدا منهمُ من سالفِ الفرطاتِ
خلا من صلاة العارفين لربهم ... وتسبيحهمْ في حالك السُّدَفاتِ
لتبك على القدس البلادُ بأَسْرِها ... وتعلنُ بالأحزان والتَّرَحاتِ
ويلبسن أثوابَ الحِداد تأسُّفاً ... يرحن بها ما عشن متشحاتِ
فقد كُنَّ منه في خفارةِ رحمةٍ ... زماناً من الأسواء محتمياتِ
لِتَبْكِ عليه مكة فَهْي أُخته ... وتشكو الذي لاقت إلى عرفاتِ
لِتَبْكِ على ما حَلَّ بالقُدْس طيبة ... وساكنها المدفون في الحُجُراتِ
لعلَّ رسولَ الله يسألُ رَبَّه ... تداركها من هذه الهلكاتِ
لِتَبْك بلادُ الشَّام للقُدْس خاصَّة ... وتصبحُ من أمثالها حَذِراتِ
لقد طَرَقَ الإسلام يا حار بغتةً ... وشَرُّ البلايا طارقُ البغتاتِ
لقد هدموا مجدَ الصَّلاح بهدمه ... وقد كان مجداً باذخ الغُرُفاتِ
وقد أخمدوا صوتاً وصيتاً أثاره ... لهمْ عُظْمُ ما نالوا من الغَزَواتِ
أما عَلِمَتْ أبناءُ أيوبَ أَنَّهمْ ... بمَسْعاتِهِ عُدُّوا من السَّرَواتِ
وأنَّ افتتاحَ القُدْس زهرةُ مُلْكهمْ ... وهل ثمرٌ إلا من الزَّهَراتِ
فمن لي بنُوَّاحٍ يَنُحْنَ على الذي ... شَجَانا بأصواتٍ لهنَّ شُجَاةِ
يُرَدِّدْنَ بيتاً للخُزَاعيِّ قاله ... يُؤَبِّنَّ فيه خِيْرَةَ الخِيَرَاتِ
مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوةٍ ... ومَنْزِلُ وَحْي مُوْحِشُ العَرَصاتِ

من أبيات.

وأكثر الشعراء في ذلك، وحكي أَنَّ فقيراً بات بالقدس، فسمع قائلاً يقول في الليل: [من الخفيف]

إنْ يكنْ بالشَّآمِ قَلَّ نصيري ... وتهدَّمْتُ ثُمَّ دامَ هلوكي
فلقد أصبح الغداةَ خرابي ... سمةَ العارِ في حياةِ الملوكِ

ومضى عز الدين أيدمر إلى الكامل من نابُلُس، وكان النَّاصر قد أهانه، فأعطاه عشرين ألف دينار، وغرَّقه بالإنعام، وكذا العزيز، وكان الكامل قد عَزَمَ على العَوْد إلى

مِصْر، فقال: قد جاءني مفتاح الشَّام. وسار إلى دمشق، [(١)ونمي(٢) إلى الأشرف والكامل أني قد أفتيت بقتالهما على المنبر، فأرعدا وأبرقا، وتواعدا عليَّ(٣) وتهدَّدا، ولذكر الله أكبر، فتوكلت على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، واعتمدت عليه، ومن يعتمد عليه يصفو له شربه، وأحيط بدمشق من كل جانب] ، وحَلَّ بها من الخراب والفساد والعجائب، وقبض النَّاصر على الفخر بن بصاقة، وابن عمه المكرم، وقيدهما ورماهما في الجُبِّ، واستأصلهما، وكان قد اتَّهم الفخر بالأشرف، وأنه لما مضى إليه في الرِّسالة واطأ على النَّاصر، وقال: هذا صبيٌّ لا يصلح للملك، وأنت أَوْلى، [(٤)فبلغني أنهما] تعاتبا في الجُبِّ، فقال الفخر للمكرم: بعد الأمر والنهي والجاه أصارنا الدَّهر إلى الحبوس والقيود، فسبحان مزيل النعم! فقال له المكرم: سبحانك! أي: أنت كنتَ السبب.

وفيها دخل الإنبرور إلى القُدْس، والحصار على دمشق، [وجرى له عجائب، منها أَنَّه](٥) لما دخل الصخرة رأى قسيساً قاعداً عند القدم، يأخذ من الفرنج القراطيس، فجاء إليه كأَنَّه يطلب [منه](٥) الدعاء ولكمه، فرماه إلى الأرض، وقال: يا خنزير، السُّلْطان تصدَّق علينا بزيارة هذا المكان تفعلوا فيه هذه الأفاعيل! لئن عاد دخل واحد منكم على هذا الوجه لأقتلنه. [وحكى صورة الحال قوام الصخرة، قالوا](٥)، ونظر إلى الكتابة التي في القُبَّة: وقد طَهَّر هذا البيت المقدَّس صلاحُ الدين من المُشْركين. فقال: ومَنْ هم المشركون!

وقال للقوام: هذه الشِّباك التي على أبواب الصَّخرة من أجل أيش؟ قالوا: لئلا تدخلها العصافير. فقال: قد أتى الله إليها بالخنازير.

---

(١) في (ح): وسار إلى دمشق، وأحدق العسكر بها، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) ونمي، ساقطة من (ش)، وهي زيادة من عندنا لتستقيم العبارة.

(٣) في (ش): عليه، والمثبت يستقيم مع سياق العبارة.

(٤) في (ح): وتعاتبا...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٥) ما بين حاصرتين من (ش).

[قالوا][1]: ولما دخل وقت الظهر، وأَذَّن المؤذن قام جميعُ مَنْ كان معه من الفَرَّاشين والغِلْمان ومعلمه ـ وكان من صِقِلِّية يقرأ عليه المنطق ـ فصلُّوا، وكانوا مسلمين.

[قالوا][1]: والظَّاهر من كلام الإنبرور أَنَّه كان دهرياً، وإنما كان يتلاعب بالنَّصْرانية.

[قالوا][1]: وكان الكامل قد تقدَّم إلى القاضي شمس الدين قاضي نابُلُس أن يأمر المؤذنين ما دام الإنبرور بالقُدْس لا يصعدوا المنابر، وإنما يؤذنوا في الحرم، فأنسي القاضي أن يُعْلم المؤذنين، فصعد عبدُ الكريم المؤذن في تلك الليلة وقت السَّحر، والإنبرور نازل في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختصُّ بالنصارى مثل قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾[المؤمنون: ٩١] ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[مريم: ٣٤] ونحو هذا، فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبدَ الكريم وقال له: أَيش عملت؟ السُّلْطان رسم كذا وكذا. قال: ما عَرَّفتني والتوبة. فلما كانت الليلة الثَّانية ما صعد [عبد الكريم المئذنة][1]، فلما طلع الفجر استدعى الإنبرور القاضي، وكان قد دخل القدس في خدمته، وهو الذي سلَّمه إليه، فقال له: يا قاضي، أين ذاك الرجل الذي طلع بارحة أمس المنارة وذكر ذاك الكلام؟ فعَرَّفه أَنَّ السلطان أوصاه. فقال الإنبرور: أخطأتم يا قاضي، تغيرون شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي! فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب النَّاقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا، هذا أول ما تنقصون عندنا. ثم فَرَّق في القوام والمؤذنين والمجاورين جملة، أعطى كلَّ واحد عشرة دنانير، ولم يقم بالقُدْس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا، وخاف من الدَّاوية، فإنهم عزموا على قَتْله، وكان أشقر أمعط، في عينيه ضعف، لو كان عبداً ما ساوى مئتي دِرْهم.

وفيها اشتدَّ الحصار على دمشق، فألجأتِ الضرورة أَنَّ النَّاصر خرج إلى [عمه][1] الكامل، وأعطاه الكَرَك وعجلون والصَّلت ونابُلُس والقدس والخليل، وأخذ منه الشوبك، وسلَّم إليه دمشق، [وكان نزوله على دمشق][1] في ربيع الآخر من هذه السنة، وتسلمها غُرَّة شعبان، أقاموا عليها أربعة أشهر، وسَلَّم الكاملُ دمشق إلى الأشرف.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

ونزل الخوارزمي على خِلاط، وضايقها، وأقام عليها إلى السنة الثانية، ونزل عليه الثلج، وحفروا سراباً له ولأصحابه، ولم يزل حتى أخذها عنوة في السنة الآتية.

وسار الكامل إلى حماة، فحصرها، وأخذها من النَّاصر قليج رسلان، وأعطاها لمحمود بن المنصور، ولقبه المُظَفَّر، وكلاهما ابنا أُخته.

وسار النَّاصر داود إلى الكَرَك، وكان قد بكى بين يدي الكامل على الشَّوْبك، فقال الكامل: أنا ما لي حصن يحمي رأسي، وَهَبْ أنك وهبتني إياه. فسكت.

وأقام الأشرف بدمشق، فدخل عليه ابنُ عُنَيْن، فلم ير منه ما كان يعهده من مجالس المعظم، [وما كان يجري فيها من الهنات، وقذف المحصنات، فإنَّ ابن عنين كان هجاءً، خبيث اللسان،][1] فَشَرَع فيما كان يفعله، فنهاه الأشرف، وقال: ما مجالسي كما عهدت، يكفيني ما أنا فيه حتى أضيف إليه ثلب [أعراض][1] المسلمين! فخرج من عنده، [وكان شاعراً لبيباً كثير الكلام، فأخذ يصنف هجاءه، وقد][1] عمل فيه: [من الطويل]

وكنا نرجِّي بعد عيسى محمداً ... لينقذنا من شِدَّة الضُّرِّ والبَلْوى
فأوقعنا في تِيْه موسى كما ترى ... حيارى فلا مَنٌّ لديه ولا سَلْوى[2]

وبلغ الأشرف، فقال: هذا الملعون، إذا لم يكن عندي مَنٌّ ولا سلوى، فعند مَنْ! وأمر بقَطْعِ لسانه، فدخل على جماعة، وحلف أنه ما قال هذا. فقال الأشرف: هذا ما أفلت من لسانه أحد، ولا بُدَّ من قطعه. فهرب إلى بلاده ازرع وحوران، وسكت الأشرفُ عنه.

وفيها توفي

أقسيس[3]

الملك المسعود بن الكامل، صاحب اليمن.

بلغه موت المعظم [في سنة خمس وعشرين وست مئة][1]، فطمع في الشَّام، فتجهَّز من اليمن بجهاز لم يسبقه إليه أحدٌ من الملوك، ونادى في بلاد [اليمن في][1] التُّجَّار:

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) ديوانه: ١٣٢ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٢٤٤ ، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ١٧ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

من أراد صحبة السُّلْطان إلى الدِّيار المِصْرية، فليتجهز. فجاء التُّجَّار من الهند بأموال الدُّنيا والأقمشة والجواهر، فلما تكاملتِ المراكب بزبيد جَمَعَ التجار، وقال: اكتبوا لي بضائعكم وما معكم لأحميها من الزكاة والمؤن. فكتبوها له، فصار يكتب لكلِّ تاجرٍ برأس ماله إلى بعض بلاد اليمن، ويستولي على ماله، ففعل بالجميع كذا، فاجتمعوا، فاستغاثوا، وقالوا: نحن قد جئنا من بلدان شتى، وفينا مَنْ أهله بإسكندرية والقاهرة ومِصْر والشَّام والرُّوم، ولنا مُدَّة سنين [ونحن بعيدون][1] عن أهلنا، وقد اشتقنا إليهم، فخُذْ أموالنا، وأَطْلِقْنا نروح إلى أهلنا. فلم يلتفت إليهم، وأخذ الجميع [فبلغني أنه كان][2] ثَقَلُه في خمس مئة مركب، ومعه ألفُ خادم، ومئة قنطار عنبر وعود ومسك، ومئة ألف ثوب، ومئة ألف صندوق أموال وجواهر، وركب الطريق إلى مكة، ولما وصل بعض الطريق مَرِضَ مرضاً مزمناً، فما دخل مكة إلا وقد فلج، ويبست يداه ورِجْلاه، ورأى في نفسه العِبر، فلما احْتُضر بعث إلى رجل مغربي بمكَّة، فقال: والله ما أرضى لنفسي مِنْ جميع ما معي كفناً [أتكفن به][3]، فتصدَّق عليَّ بكفن، فبعث له بنصفيتين بغدادي، ومئتي دِرْهم، فكفنوه فيهما، ودفن بالمعلى. وقيل: إنَّ الهواء ضرب بعضَ المراكب، فرجعت إلى زبيد، فأخذها أصحابها. [وبلغني عن الكامل أنه سر بموته][4]، ولما جاء خزنداره إليه ما سأله كيف مات، بل قال: كم معك من المال والتُّحف. [وقد ذكرنا ما فعل أقسيس وضربه الحرم بالبندق، فعوقب سريعاً، وضربه القدر ضرباً وجيعاً][3].

الحسين بن هبة الله[5]

ابن محفوظ بن صَصْرى، أبو القاسم، الدمشقي.

---

(١) زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(٢) في (ح): وأخذ الجميع، فكان ثقله، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (ش).

(٤) في (ح): وسر الكامل بموته، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٥) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٢٤٠ـ٢٤١ ، و«تاريخ الإسلام»: (وفيات سنة ٦٢٦هـ)، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٨٢ـ٢٨٤ ، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٩ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.